البنية الحجاجية في شعر أبي طالب (عليه السلام)

م .م. حسين فاضل عيسى
جامعة بابل– كلية الآداب

البريد الإلكتروني Email : art hussain.fadhel@uobabylon.edu.iq

الكلمات المفتاحية: أبو طالب، الحجاج، البنية الحجاجية، الاقناع، التقنيات الحجاجية.

كيفية اقتباس البحث

عيسى ، حسين فاضل، البنية الحجاجية في شعر أبي طالب (عليه السلام)، مجلة مركز بابل للدراسات الانسانية، تموز ٢٠٢٥،المجلد:١٥ ،العدد:٤ .

هذا البحث من نوع الوصول المفتوح مرخص بموجب رخصة المشاع الإبداعي لحقوق التأليف والنشر (Creative Commons Attribution) تتيح فقط للآخرين تحميل البحث ومشاركته مع الآخرين بشرط نَسب العمل الأصلي للمؤلف، ودون القيام بأي تعديل أو استخدامه لأغراض تجارية.

مفهرسة في Indexed
IASJ

مسجلة في Registered
ROAD

The Argumentative structure in Abi Talib poetry PBUH

Hussein Fadhil Issa
University of Babylon- College of Arts

Keywords : Abu Talib, Al-Hajjaj, argumentative structure, persuasion, argumentative techniques.

How To Cite This Article
Issa, Hussein Fadhil , The Argumentative structure in Abi Talib poetry PBUH,Journal Of Babylon Center For Humanities Studies, July 2025,Volume:15,Issue 4.

This is an open access article under the CC BY-NC-ND license (http://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/

This work is licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International License.

Abstract

I intended to study the pilgrimage in Abu Talib's poetry from linguistic and intellectual aspects in order to identify the most important pilgrimage concepts that were presented. The study seeks to explain the most important elements of persuasion that Abu Talib employed as he tried to convince his addressees of the validity of the ideas he was presenting.

The importance of the study comes from the lack of studies on the argumentative structures in Abu Talib's poetry, and it comes to reveal Abu Talib's faith and monotheism or not. This is because of the many suspicions raised about his faith

The study seeks to demonstrate the most important elements of persuasion employed by Abu Talib as he attempted to convince the audience of the validity of his ideas. Abu Talib's poetry is a discourse aimed at influencing the opinions and behaviors of his audience, captivating their minds, and urging them to believe and practice monotheism. This characteristic made his literature an argumentative one par excellence, as he defended the Messenger of God in every way, with words, money, and prestige. The importance of the study stems from the lack of studies on argumentative structures in Abu Talib's poetry, which

seek to reveal Abu Talib's faith and monotheism. The study followed a descriptive and analytical approach.

الملخص:

إن ما يميّز الخطاب الأدبيّ _بشكل عام_ عن سائر مستويات الكلام الأُخر، إمكانية قراءته من مستويات متعددة. إذ دُرست أشعار أبي طالب (عليه السلام) دراسات كثيرة وبخاصة من الجوانب اللغوية والبلاغية بمستوياتها المختلفة. ولكن كثرة الدراسات المتعلقة بخطاب أبي طالب (عليه السلام) لا تعني عدم إمكانية البحث فيها من جوانب تختلف عما دُرس فيها من قبل.

من هنا عمدت إلى دراسة الحجاج في شعر أبي طالب من جوانب لغوية وفكرية للوقوف على أهم ما عُرض من مفاهيم حجاجية؛ نستطيع استثمارها في مقاربة خطاب أبي طالب الولائي والدفاعي.

أما مشكلة البحث فهي كثرة الشبهات حول إيمان أبي طالب وتوحيده، فاستعمال الحجاج والدفاع عن القضية هو ما يثبت كذب الافتراءات.

وتسعى الدراسة إلى بيان أهم عناصر الإقناع التي وظّفها أبو طالب وهو يحاول إقناع الجمهور بصحة ما يعرضه من أفكار؛ إذ إن أشعار أبي طالب خطابٌ موجهٌ الى التأثير في آراء المخاطَبين وسلوكياتهم، لاستمالة عقولهم، وحثهم على الإيمان والتوحيد، وهذه الميزة جعلت من أدبه حجاجيًا بامتياز؛ إذ كان مدافعًا عن رسول الله في كل شيء، بالكلمة والمال والجاه.

أهمية الدراسة: تأتي من عدم وجود دراسات حول البنى الحجاجية في شعر أبي طالب، وهي تأتي للكشف عن إيمان أبي طالب وتوحيده من عدمه.

وقد اتبع البحث المنهج الوصفي التحليلي.

المُقدّمة

مثّل شعرُ أبي طالب مرحلة الدعوة الإسلامية خيرَ تمثيل، فشعره –عليه السلام– كان محطّ عناية خاصة آنذاك لما لأبي طالب–عليه السلام– من تأثير في الأوساط كافة.

كانت جلّ أشعار أبي طالب–عليه السلام– تدور في توحيد الصف للدفاع عن الرسول الكريم–صلى الله عليه وآله– والرسالة المحمدية المباركة وضرورة بذل الغالي والنفيس في سبيل المحافظة عليها ونصرتها. وسعى في شعره الى الاقناع والتأثير في المتلقين بحقانية الرسالة المحمدية وأحقية اتباعها. إذ ساهم خطاب أبي طالب–عليه السلام– في تفجير ثورة عبر حث

المتلقين على رفض الظلم والانتصار للحق والمظلومين وعدم الانصياع لصوت الفتنة والشر والكفر.

تلك المعطيات دفعتنا إلى دراسة البنية الحجاجية في شعر أبي طالب-عليه السلام- ودراسة الوسائل والتقانات التي وظّفها لتحقيق غايته في التأثير والاقناع.

وقد حللنا عددًا كبيرا من النصوص لتكون الدراسة أكثر نفعا وفائدة، غير أننا لم نحط بجميع البنى الحجاجية ولم نتطرّق إلى العلاقات الحجاجية لأن ذلك يحتاج إلى دراسة أوسع وأشمل.

قُسّم البحث على ثلاثة مباحث مسبوقة بتمهيد، اعتنى التمهيد ببيان معنى الحجاج وسبب اختياره في شعر أبي طالب-عليه السلام-. في حين تناول المبحث الأول التوظيف الحجاجي لبعض التقنيات الأسلوبية. وتناول المبحث الثاني التوظيف الحجاجي للتشبيه والاستعارة. في حين تناول المبحث الثالث البنية الحجاجية المؤسسة على بنية الواقع. تلا ذلك خاتمة تناولت النتائج والتوصيات. ومن ثم ثبت بمصادر البحث ومراجعه.

التمهيد: ما الحجاج؟ ولماذا في شعر أبي طالب؟

الحجاج في اللغة: جذر لفظة الحجاج مرتبط بالمجادلة، جاء في اللسان: ((والحجة البرهان وقيل الحَجَة ما دفع به الخصم))[١] .

ويعرّف اصطلاحا بأنه عملية اتصالية تستعمل من اجل التأثير في المخاطبين، وهو ((فعالية تداولية جدلية، لأن طابعه الفكري مقامي واجتماعي، إذ يأخذ بعين الاعتبار مقتضيات الحال من معارف مشتركة... وهو أيضاً جدلي، لأن هدفه إقناعي))[٢] وهو ((استراتيجية إقناعية مادتها اللغة والغاية منها الإفهام ونجاح الخطاب في قدرته على إقناع المتلقين فضلا عن مناسبة الحجة الملقاة للمتلقين))[٣]، والخطاب الحجاجي خطاب غائي غايته القصوى اقناع المتلقي بما يحمله من أفكار وما يعرضه من مواقف ليُحدث أثرًا في المتلقي من حيث أفكاره أو مواقفه أو في سلوكه[٤].

إنّ الحجاج يحضر في الشعر كما يحضر في النثر، وإنّ الشاعر يضطلع بوظيفة المدافع عن فكرة [٥]. إذ إن الاستعمال الاجتماعي للكلام يبرز للحجاج سمة مميزة فكل حجة تفترض حجة مضادة ولا وجود لحجاج من دون حجاج مضاد لأن الحقيقة متى تنزلت في إطار العلاقات الإنسانية والاجتماعية صعب ادراكها وتكون محل نزاع بغياب الحجج الماديّة والموضوعية [٦].

مجلة مركز بابل للدراسات الإنسانية ٢٠٢٥ المجلد ١٥/ العدد ٣

فضلا عن ذلك فأن النص الأدبي الحي لا يمكن أن يكون أحادي الوظيفة فهو إلى جانب الوظيفة الشعرية هناك وظائف أُخر من مثل الوظيفية الانفعالية والوظيفية التوجيهية الإقناعية [٧].

ولما كان أبو طالب صاحب العقيدة الراسخة والإيمان العميق وهو المحامي والمدافع والكافل لرسول الله لذا فمن الطبيعي أن يكرّس الحجاج في خطابه، ويسعى إلى توثيق الصلة بين خطابه وتقنيات الاقناع المتنوعة. إذ أخذ على عاتقه ارساء التأييد والحماية من بني هاشم وبني عبد المطلب، وبذل في هذا الشأن كل ما يملك من طاقة مادية ومعنوية وتحمل المصاعب في سبيل رسالة الدين الإسلامي والحفاظ عليها وعلى النبي الكريم –صلى الله عليه وآله– فكان يشجعه بإظهار الرسالة ويشد من أزره ويقوي عزيمته وهذا ما تجلّى واضحا في خطابه الشعري في الدفاع عن النبي–صلى الله عليه وآله– ونصرته.

المبحث الأول

التوظيف الحجاجي للتقنيات الاسلوبية(الاستفهام، الأمر والنهي)

الاستفهام:

يكون الاستفهام وسيلة حجاجية يروم المحاجج فيها إقناع المتلقي بفكرة معينة عن طريق طرح سؤال كوسيلة حجاجية يصل فيها المحاجج إلى غايته من إقرار المتلقي بصحة ما يطرحه، ((والإجابة التي سيقدمها المخاطب هي إقراره في الواقع بما يريده الخطيب ومن ثم سيكون المخاطب مُلزَما بقبول النتيجة أو المفهوم الدلالي؛ فقوّة الخطاب الحجاجي تأتي من أنه يفرض على المخاطب نمطا معينا من النتائج مقرًّا إياها بوصفها الاتجاه الوحيد الذي يسير فيه المخاطب))[٨]، ويتضح أن الاستفهام بنية حجاجية تقوم على طرح القضية المخصوصة ويؤدي دوراً كبيراً في الإقناع ولاسيما في العملية الحجاجية؛ نظراً لما يعمله من جلب المتلقّي الى فعل الاستدلال بحيث يشركه بحكم قوة الاستفهام وخصائصه التي تخدم مقاصد الخطاب ويؤدي دوراً أساسيا في الاقناع بالحجة [٩].

تأتي أهمية السؤال من الناحية الحجاجية، لأنه يولّد نقاشا، بوصفه وسيلة من وسائل الاثارة ودفع المتلقي إلى اعلان موقفه إزاء المشكل المعروض [١٠]. هذا الموقف يحدده المتكلّم بقرائن يستدعيها في السياق وتقود عملية الاستنتاج المتصلة بالسؤال المعروض، ومن ذلك قوله –عليه السلام–:

أَلا مَـن لهـمٍّ آخِـرَ الليـلِ مُنْصِـبِ وشِـعْبِ العصـا مـن قومـكِ المتَشَـعِّبِ
وجَرْبـى أراهـا مـن لـؤيِّ بـنِ غالـبٍ مَتـى مـا تُزاحِمُهـا الصَّـحيحةُ لجـربِ
إذا قـائمٌ فـي القـومِ قـامَ بِخُطَّـةٍ أقـاموا جميعـاَ ثـمَّ صـاحوا وأَجْلَبـوا
وما ذنبُ مـن يَدْعو إلـى الله وحدَهُ وديـنٍ قـديمٍ أهلُـه غيـرُ خُيَّـبِ ؟
وما ظُلْمُ مَن يَدْعو إلى البِرِّ والتُّقَى ورأبُ الثـأي فـي يـومِ لاحـينَ مَشْـعَبِ؟(١١)

يفتتح أبو طالب قصيدته –التي يتألم فيها من تصرف قومه ويمدح الرسول محمد–صلى الله عليه وآلـه–– بالسـؤال، فقد عـرض إشـكالًا مهمًـا يـدفع المتلقّـي إلـى اعـلان موقـف معـين إزاء هـذا الإشكال، فالسؤال عرض لمشكلة الإنسان الحكيم في كل زمان ومكان حين يرى قومَه متفرقين عن الحق، وموقف الإنسان اللبيب من الحق والتمسك بـه، فذلك الأمر يسلب الإنسان النوم ويُطيل ليله، هذا الموقف حشد له أبو طالب–عليه السلام– جملة من الألفاظ المعبرة عن التفرّق والفوضى التي تعمّ قريش آنذاك من مثل (شعب العصا)، (جربى)، (اجلبوا). ويتابع أبو طالب– عليه السلام– السؤال في القصيدة ذاتها، بقوله:

وما ذنبُ مـن يَدْعو إلـى الله وحدَهُ وديـنٍ قـديمٍ أهلُـه غيـرُ خُيَّـبِ ؟
وما ظُلْمُ مَن يَدْعو إلى البِرِّ والتُّقَى ورأبُ الثـأي فـي يـومِ لاحـينَ مَشْـعَبِ ؟

إذ يعلن سيّدنا أبو طالب –عليه السلام– موقفه من دين محمد (دين البر والتقى)، فقد اتخذ من أسلوب الاستفهام وسيلة للإقناع بما فيه من افتراضات ضمنية، فهو يعرض اشكال علاقة الإنسان بتقبل الحق وعدم رفضه لأنه لا يناسب الهوى. فأبو طالب –عليه السلام– يسأل عن ذنب محمد وهو يدعو إلى دين التوحيد، مذكرا العرب بأنه دين قديم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، وهو دين يدعو إلى اصلاح الفساد والظلم المستشري وقتذاك.

إن تكرار السؤال في بيتين متتاليين يؤكد حاجة أبي طالب –عليه السلام– إلى ايقاظ أرواح قومه التي نست دين ابراهيم وتخلت عنه؛ وتذكيرهم أن دين محمد هو الوحيد القادر على اصلاح ما أفسده الدهر والمترفون من قريش.

يدعو أبو طالب –عليه السلام– إلى الحكمة والحلم، لأن ما يُفقد لن يعود:

تَطـاولَ ليلـي بهـمٍّ وَصِـبْ ودَمـعٍ كسَـحِّ السِّـقاءِ السَّـرِبْ
للعـبِ قُصَـيٍّ بأحلامِهـا وهـل يَرجِـعُ الحلـمُ بعـدَ اللَّعِـبْ ؟(١٢)

إذ يدفع المتلقي إلى الاقرار بعبثية ما قامت به (بني قصي) في حصار الشعب، وما فقدته من حكمتها لن يعود أبدا. وتتجلى طاقة السؤال الإقناعية في حث المتلقي إلى أن تكون الاجابة تحمل إقرارًا بأنّ (بني قصي) فقدت صوابها حين حاصرت المسلمين في شعب أبي طالب –عليه السلام–.

ويتقدّم أبو طالب –عليه السلام– واثقا بنفسه وبرسالة النبي محمد –صلى الله عليه وآله– محاولا اقناع قومه باتباع دين النبي العظيم–صلى الله عليه وآله–، حفاظا على ارواحهم ونفوسهم، فالغد بيد محمد لا محالة، إذ يقول:

فيا لَقُصيٍّ هَل لكُمْ في نفوسِكُمْ وهَل لكُمو فيما يجيءُ بهِ الغدُ ؟
فإنّي وإيّاكم كما قالَ قائل: لدَيْكَ البَيانُ لو تكلمتَ أسْوَدُ (١٣)

استعمل أبو طالب –عليه السلام– في هذا النص الحجاجي السؤال مختصًا بالأداة (هل) مرتين، فتكرار السؤال آلية حجاجية للتأثير في المتلقي واصلا به الى الغاية من الحجاج وهي اقناعه بأنّ سبيل الصواب والحفاظ على النفس مرهون باتباع النبي الخاتم–صلى الله عليه وآله–. وتكرار الأداة (هل) لتأكيد التأثير في التلقي من خلال اثارة انتباهه لتحقيق المعنى المطلوب في نفسه.

ويصل به الأمر من شدة يقينه أن يجعل بينه وبين خصومه تحديا كبيرا ويحتج على خصومه بمثل مشهور (لدَيْكَ البَيانُ لو تكلمتَ أسْوَدُ)؛ إذ أجاد في توظيف هذا المثل لوصف حال خصومه وما سيكون عليه المستقبل.

الأمر والنهي:

معنى الأَمر هو أن تقوم بالفعل الذي طلب منك القيام به. وتحدّث الدكتور أبو بكر العزاوي عن ذلك بقوله: ((أَما بالنسبةِ لفعلِ الأَمر، فإن إنجازهُ يتمثلُ في محاولة دفع المخاطب للقيام بفعلٍ معين، ومعلومٌ أَن المتكلم لا يُصدرُ أَمراً إلى من هو أمامه إلّا إذا كان راغباً فعلاً في أن ينفذه. ومعلوم أيضاً أنه لا يمكن أن يصدر أمراً إلى مخاطبه إلّا إذا كان قادرًا على ممارسة سلطته ونفوذه عليه))(١٤)، أما النهي فهو الكف عن القيام بفعل أَو قول، وهنا يتضح الخلاف بينه وبين الامر، ويتفقان في أن كليهما يحملانِ معنى الطلبِ. وتستعملُ الصيغتانِ في توجيه الخطاب إلى المتلقي إما أَمر له بالقيام بفعل معين أو نهي له عن القيام بذاك الفعل، وفي الأسلوبين طاقة حجاجية؛ وذلك لأنهما من الأساليب الانشائية التي تنتمي إلى صنف الافعالِ التي وسمها اوستن بالأقوال التي فيها انجاز لأفعالٍ معينةٍ، لكنهما بحسب اوستن إنجازٌ ضمنيٌ لأنَ صيغتي الامر والنهي تحملانِ معنى الدعوةِ أو الطلبِ، ومن هنا تبدو صلتهما بالحِجَاج وثيقةً، لأَنهما يهدفان

إلى توجيه المتلقي إلى سلوكٍ معينٍ يحدّدهُ صاحب الخطاب الذي ينتج عنهُ فعلا الأَمر والنهي [١٥].

سنوضح في هذا المطلب مدى فاعلية الأمر والنهي في شعر أبي طالب –عليه السلام–؛ إذ وظّف أبو طالب–عليه السلام– هذا الأسلوب توظيفا بارزًا ومكثفًا. ومن ذلك قوله:

قـلْ لِمَـن كـانَ مِـن كنانَـةَ فـي العـز ... وأهـــلِ النَّـــدى وأهـــلِ الفَعـــالِ
قَـــد أتـــاكُمْ مـــنَ المَليـــكِ رســـولٌ ... فـــاقبلوهُ بصـــالحِ الأعمـــالِ
فـــاقْبَلوا أحمـــداً ؛ فـــإنَّ منَـــا اللـــ ... ـــهِ رداءً عليـــهِ غيـــرَ مُـــذالِ [١٦]

تظهر صيغة الامر (قل) في السياق الواردة فيه أنه طلب فيه الزامٌ لتبليغ رسالة الى قبيلة كنانة، وتفرع الخطاب التبليغيّ بحروف العطف إلى أهل الندى، وأهل الفعال، مما يساعد تقبل تلك الرسالة، وشد انتباه السامعين إلى تتبع مضمونها في انبائه ببعثة رسول الله معززا الرسالة بفعلي الأمر: (اقبلوه، وانصروه).

وعضّد كلامه بتعليلات أفادت بأن رسول الله سيبذل لهم الاعمال الصالحة، لكي يقنع الشاعر قبيلة كنانة ببعثة النبي –صلى الله عليه وآله–؛ ولهذا يتوجب عليهم قبول دعوته. معللا امر نصرته بأنه يلتحف برداء رباني لا يزول عنه أبدًا، ليحتم الشاعر على القوم الالتزام بأوامره الصادرة عنه في القبول والنصرة. ومن ذلك قوله:

فيـــا قَومَنـــا لا تَظْلمونـــا فإنَّنـــا ... متـى مـا نَخَـفْ ظُلْـمَ العَشـيرةِ نَغْضـبِ
وكُفُّـوا إلـيكُمْ مـن فُضـولِ حلـومِكُمْ ... ولا تَـذْهبوا مـن رأيِكـم كـلَّ مَـذْهَبِ
ولا تبـــدؤونا بالظُّلامـــةِ والأذى ... فَنَجْزيكمُـو ضِـعْفاً مـعَ الأمِّ والأبِ [١٧]

نجد في هذا الخطاب المباشر لقومه تكثيفا لصيغتي الأمر والنهي، فقد حذّر قومه من خطر التطاول على المسلمين وظلمهم. فهو قد وجههم لمجموعة من السلوكيات التي يراها الأصلح لقومه، فالنهي الأول (لا تَظْلمونا) وجه من طريقه قومه إلى ترك الظلم معللًا ذلك بأنهم يأبون الضيم وسوف يغضبون بلا خوف إذ رأوا عشيرتهم الأقربين يظلمونهم.

تلا ذلك استعمال لفعل الأمر (كُفُّوا) هاديا ومرشدا لهم لكي يتجبنوا الكلام الذي لا طائل منه، ولا يغالوا في اللغو وأن لا يبتعدوا في تفكيرهم الضال.

ويدعو أبو طالب –عليه السلام– قومه بإلحاح إلى تجنب السلوكيات المنحرفة إذ نراه يكرر النهي مرة ثالثة فيقول (ولا تبدؤونا بالظُّلامةِ والأذى) صانعا جوا من التحدي والقوة لكل قوة تقف بوجه المسلمين.

ونجد توظيفا حجاجيا للأمر والنهي في مواطن كثيرة، ومنها أيضا:

أَفِيقوا أفيقوا قبلَ أنْ يُحفرَ الثَّرى ... ويُصبحَ مَن لم يَجْنِ ذنبا كذي الذَّنبِ
ولا تَتْبَعوا أمرَ الوُشاةِ وتَقْطعوا ... أواصرَنا بعدَ المودَّةِ والقُربِ
وتَسْتَجْلبوا حربا عَوانا وربَّما ... أَمَرَّ على مَن ذاقَهُ جلَبُ الحرْبِ (١٨)

وجّه أبو طالب –عليه السلام– ذهن المتلقي وعقله بفعل الامرِ (أَفِيقوا) المكرر مرتين؛ ليستوعبوا الصورةَ السيئة التي تؤول إليها الحرب؛ لغرض تحفيزهم على اتخاذ موقف سلبي تجاهها وتجنبها ومن ثم يوجّه المتلقي بنهي (ولا تَتْبَعوا)؛ ليحركَ فيه روح الود والقرابة التي بينهم.

يسعى أبو طالب–عليه السلام– إلى تحفيز عقل المتلقّي على عقد مقارنة بسيطة بين منطق الحكمة والمحافظة على أواصر المودة والقرابة، ومنطق الحرب التي تجلب الويلات إن نشبت، ولما كان أبو طالب –عليه السلام– يوجّه كلامهُ إلى المُتلقي بطبقاته كافة، كان الامر بصورة الطلب المشفوع بإيراد الأَدلة والبراهين على طلبه هذا، فقد تتابعت الحجج بعد كل أمر ونهي. إذ سعى أبو طالب–عليه السلام– بكل جهده ليبيّن المشهد للمتلقين لعلهم يستفيقون قبل فوات الأوان، فهو رسم صورة واضحة عن الحالة التي ستؤول إليها قريش والمجتمع المكي وهو فقدان السلم الأهلي إذ يتساوى صاحب الذنب مع من لم يقترف أيّ ذنب؛ يتضح ذلك من مجيء فعل الأمر (أفيقوا) مكررًا مرتين، متبوعا بالنهي (لا تَتْبَعوا) (١٩).

ونجد التكثيف ذاته في مواطن كثيرة، ومنها:

أَعُتْبةُ ، لا تَسمعْ بنا قولَ كاشِحٍ ... حَسودٍ كذوبٍ مُبغِضٍ ذي دَغاوُلِ
وقد خِفْتُ إنْ لم تَزْجُرَنْهُمْ وتَرْعَووا ... تُلاقي ونَلْقَى منك إحْدَى البَلابلِ
ومَرَّ أبو سُفيانَ عنِّيَ مُعْرِضا ... كما مَرَّ قَيْلٌ مِن عِظامِ المَقاوِلِ
يَفرُّ إلى نَجدٍ ويَرْدِ مياهَهِ ... ويَزْعمُ أنِّي لستُ عنكُم بغافلِ
وأَعلمُ أنْ لا غافلٌ عن مَساءَةٍ ... كفاك العدوُّ عندَ حقٍّ وباطلِ
فميلوا عَلينا كُلُّكُمْ ؛ إنَّ مَيْلَكُمْ ... سَواءٌ علينا والرياحُ بهاطلِ (٢٠)

حضرت صيغتا (الأمر) و(النهي) بشكل واضح في هذا النص، فأبو طالب –عليه السلام– الذي خاض التجارب يملك من الحكمة ما يؤهله إلى أن يأمر وينهى، إذ يسعى إلى أن يؤدي دوره القيادي في تربية المجتمع. فقد خاطب (عتبة) بنبرة عالية يلاحظها الملتقي باستعمال (الهمزة)، ومن ثم نهيه بـ (لا) لتجنب الاستماع إلى أقوال الوشاة والحاقدين ذاكرًا أسباب ذلك، أحدهما: أنّ هذا المبغض يحمل صفات كثيرة مذمومة، والآخر: أن الاستماع لهم يجر الويلات والمشكلات.

وهنا نلمس الحجة التي قدمها أبو طالب –عليه السلام– فهو قد علل استعماله لفعل الأمر (ميلوا) تعليلا ساخرًا؛ فقد جعل حربهم على المسلمين كمثل المطر الذي لا يضر، فكان يهزئ به في أمره، وذاك البيت يتنزّل ضمن تقنية الحجاج عن طريق السخرية، فمن يشن حربا خاسرة لا تضر ولا تنفع يكون خائبا قليل الحكمة، وهذا الأمر بما يحتويه من قوة حجاجية توجه المتلقي إلى نتيجة مهمة وهي ترك تلك الحرب الخاسرة.

المبحث الثاني

آليات الحجاج البلاغية: (التشبيه والاستعارة)

التشبيه:

يُعرّف التشبيه لغةً بأنه: ((الشبه والشَّبه والتّشبيه ، المثل وأشبهه المثل بالشيء: ماثله وأشبهن فلاناً، شابهته، أشتبه علي، وتشابه الشيئان أشبه كل واحد منهما صاحبه والتشبيه المثيل))[٢١].وقال قدامة بن جعفر في التشبيه: ((أن يقع بين شيئين بينهما أشتراك في معان تعمهما فأحسن التشبيه ما وقع بين شيئين لأشتراكهما في الصفات أكثر من انفرادهما فيه حتى يدني بهما الى حال الاتحاد))[٢٢] .

وللتشبيه قدرة حجاجية؛ لأنه عامل مساعد في تعزيز روح الاقناع لدى المتلقي، لما يوفره من طاقة حجاجية قادرة على إثارة المتلقي وتفكيره ودفعه للبحث عن العلاقة التصويرية التي تجمع بين صورة المشبه والمشبه به، وما تحدثه هذه العلاقة من أثر في نفسية المتلقي.

تأتي قيمة التشبيه الحجاجي من قدرته على إكساب القول طاقة تصويرية تجعل الشيء حاضرًا من صورة مماثلة لأمر آخر، تدفع بالمتلقي إلى قبولها والاذعان لها.

وسنتناول في هذا المطلب توظيف أبي طالب –عليه السلام– للتشبيه بوصفه تقنية حجاجية مميزة. فمن ذلك قوله:

بلـــى لهمـــا أمـــرٌ ولكـــنْ تَجَرْجَمـــا كما جُرْجِمتْ من رأسِ ذي العَلَقِ الصَّخرُ[٢٣]

إنّ أبا طالب –عليه السلام– هنا بصدد الانتقاص من قومه والتبكيت بهم، فاستعمل لذلك تشبيها حجاجيا مهما إذ استند الى تمثيل المعنى ليكون راسخا في الأذهان، فجعل رأي (بني عبد شمس) يتأرجح كتأرجح الصخور من أعلى الجبل. فجعل الأمر المعنوي محسوسا مرئيا وكأن المتلقي يشاهده بأم عينه كيف تسقط الصخرة –الجاهل– ليقطع شكه باليقين، فالجاهل نتيجة لعدم اتباع الحقيقة والحكمة سوف يسقط ويتأرجح من اعلى قمة المعرفة.

ومنه قوله يصف قومه:

ويــنهض قــومٌ فــي الحديــدِ إلــيكم نُهوضَ الرَّوايا تحتَ ذاتِ الصَّلاصلِ (٢٤)

يصف أبو طالب–عليه السلام– قومه وهم ينهضون لنصرة النبي–صلى الله عليه وآله– بالأبل في سرعتها. إذ يكون النهوض ممزوجا بالقوة والحزم والسرعة. فهم متقلون بالحديد من السيوف والدروع، واستعمال أبو طالب –عليه السلام– هذه الصورة وعنايته بإظهارها على أَتَم وجه مراعاة المقام الذي هو فيه، ورغبتهِ في اثباتِ صحة رأيه بأفضلية قومه وقوتهم في الدفاع عن النبي الكريم–صلى الله عليه وآله–. فهو هنا يُثبت عن طريق التشبيه الذي أورده قوة قومه وصلابتهم.

ومنه قوله يمدح أبناء بني هاشم:

بضــربٍ تــرى الفتيــان منــه كــأنَّهم أســودٌ ضَــوارٍ عنــد لحــمٍ خــرادلِ (٢٥)

يبرهن أبو طالب–عليه السلام– لقوة بني هاشم عن طريق صورة حجاجية مهمة إذ فتيان قومه أسود ضوارٍ وهذه الأسود تميزت بشراستها وجسارتها (عند لحمٍ خرادلِ/ويقصد مشركي قريش) أي قطع صغيرة متناثرة ومتفرقة، إذ الأسود لا يثبت أمامها الشجعان فكيف بالخردل؟!

وباستعماله التشبيه بالأداة (كأن) يجذب إليه ذهن المتلقي، ويؤكد شجاعة بني هاشم، ورباطة الجأش التي تميز فتيانهم، وبذلك رسم صورة ترهب السامع. وهو بذلك يحذر كل من يحاول أن يعتدي على النبي محمد–صلى الله عليه وآله–.

ومنه قوله يرثي أخاه عبد الله والد الرسول–صلى الله عليه وآله–:

لــو عــاش كــان لفهــرٍ كلهــا علمــاً إذ كــان منهــا مكــان الــروح فــي الجسدِ (٢٦)

يحتج أبو طالب–عليه السلام– لعظمة الفقيد بأن منزلته منزلة الروح للجسد؛ إذ جاء عجز البيت تعليلاً لشطره ليبني الشاعر صورة تمثيلية، فللفقيد منزلة كبيرة ولا يستغني عنه فكيف يمكن للجسد الحراك من دون روحه؟!

وإن رحيل الفقيد عن مكة جعلها كالجسد عندما تغادره الروح ويبقى جثة هامدة ليصور الشاعر للمتلقي خسارتهم وعدم إمكانية تعويض هذا الفقد.

وكذلك قوله

كـــأنَّ فِراشـــي فوقَـــهُ نـــارُ مَوقِـــدٍ مـــنَ الليـــلِ أو فـــوقَ الفـــراشِ السَّـــواجِرُ (٢٧)

استمد أبو طالب–عليه السلام– مادة صورته من المجال الحسي للإنسان العربي، إذ هي مما يتكرر من مشاهد في حياة العرب. إذ يقوم هذا التشبيه بدور حجاجي لعل سببه يعود إلى ما يوحيه من مشاهد في ذهن المتلقي، ولأنه وجدها قادرة على توجيه المخاطبين، وحملهم على التسليم بما يرد في الخطاب من أفكار وآراء، فالمتلقي حين يجد صورة تدركها حواسه فلا يكون له قبل بإنكارها، إذ حق لمن يفقد عزيزا أن يكون هذا حاله(٢٨).

ومنه قوله:

وكُـــلَّ رُدينـــيٍّ ظمـــاء كُعوبُـــهُ وعَضـبٍ كإيمـاضِ الغمامـةِ مقصَـلِ (٢٩)

يرسم أبو طالب–عليه السلام– (صورة ضوئية) مهمة للمتلقي تفيد بأنّ لمعان سيوفهم يشبه البرق في الغمام، وبذلك يعطي معنى للسامع بأنهم مستعدون وشاهرون سيوفهم التي تعكس ضوء الشمس فتلمع كالبرق بين السحاب عند حدوث العاصفة وهذا يعطي دلالة للمخاطب بأنهم جاهزون للدفاع عن الرسول–صلى الله عليه وآله– في أيّة لحظة.

ويريد ابو طالب–عليه السلام– أن يبرهن على قوتهم واستعدادهم للدفاع عن الرسول –صلى الله عليه وآله– وهو ما استطاعه من خلال رسمه لتلك الصورة الضوئية البصرية مضافا إلى استعماله للألفاظ(رديني) و(عضب) (مقصل).

الاستعارة:

عرّف الجاحظ الاستعارة بقوله: ((تسمية الشيء باسم غيره، إذا قام مقامه))(٣٠)، وقد حدد عبد القاهر الجرجاني تعريف الاستعارة، بقوله ((الاستعارة في الجملة أن يكون لفظ الأصل في الوقع اللغوي معروفاً تدل الشواهد على أنّه أختص به حين وضع، ثم يستعمله الشاعر في غير ذلك الأصل وينقله إليه نقلاً غير لازم فيكون هناك كالعارية تجربه إياه))(٣١).

فالاستعارة أبلغ من الحقيقة حجاجياً؛ لأنها تقوم بتحفيز المتلقي على الاقتناع ومن ثم يصعب على المتلقي إبطال الحجاج القائم عليها ؛ لأنها تقوم على ((توريط المتلقي وإجباره على تأويل البيت وتفكيك الصورة، وبذلك تقع إلزامه بالنتيجة التي انتهى اليها بعد تفكيك وتأويل))(٣٢).

ولعل مرد الوظيفة الحجاجية للاستعارة لأنها تعمد إلى تقارب بين العالم الواقعي والعالم المجازي ليتوحد العالم في أفق واحد تدفع بالمتلقي إلى الاقناع عبر إثارة محفزاته العقلية، وتحريك خياله واثارة انتباهه، إذ ((إن حجاجية الاستعارة تعني فعاليتها في التأثير على الأذهان والافهام وتعني نوعا من الاستدلال العقلاني ومن الفضائل المعرفية والادراكية))[٣٣]، والاستعارة تُبنى على مسلّمات ينبغي الاقتناع بها شرطا أساسا في التحاور الحجاجي ((بوصفها تتكئ على مسلمات انعقد عليها اجماع المتلقين ومن ثم يسهل فهمها ، وقبول النتائج المتولدة عليها))[٣٤].

وقد خلق أبو طالب–عليه السلام– عوالم مجازية بغية كسب خيال المتلقّي واستمالته وتعديل سلوكه، ومن استعاراته الحجاجية قوله:

ومـــــــا إنْ أدبُّ لأعدائـــــــه دبيـــــبَ البِكـــــارِ حِـــــذارَ الفَنِيْـــــقِ
ولكـــــــنْ أســـــــيرُ ســـــــامِتاً كمـــــا زأرَ لَيْـــــثٌ بغِيْـــــلِ مَضِـــــيقِ [٣٥]

في هذه الصورة الاستعارية يقارن أبو طالب –عليه السلام– بين مسيره إلى الأعداء وسير الإبل وسير الأسود وهي تزأر على فريستها ليشبه سيره إلى خصومه بسير الأسود. هذا التصوير الحجاجي يعطي للمتلقّي ايحاءً بأنه فعلا لا يخاف ولا يتراجع فهو يسير دون تردد رافعا صوته بكل شجاعة، هذا فضلا عن قوة الألفاظ المستعملة تدفع المتلقي إلى التصديق بقوة أبي طالب– عليه السلام– وشجاعته.

ومن ذلك قوله أيضا:

لا يَمْنَعَنَّـــك مـــن حـــقٍّ تقـــوم بـــه إبـــــراقُ أيـــــدٍ ولا إرعـــــادُ أصـــــوات [٣٦]

يحتج الشاعر لضعف قريش بل لعجزهم، فهم فقط (إبراقُ ايدٍ)، و(إرعادُ أصوات)، فالبرق لا يعقبه المطر مثلما حركة اليد التي لا تعقبها صولة، وكذا الرعد الذي لا يعقبه صاعقة مثل الصوت الذي لا يعقبه عمل، فجميعهم لا طائل من ورائهم، وواضح الضجيج هو فقط من يحضر في تلك المواقف.

فأبو طالب–عليه السلام– في هذه الصورة الاستعارية يحث ابن أخيه على بذل الحق، ولا يعبأ بمن يعارضه بيده. ورائعة هي رؤية أبي طالب–عليه السلام– لقريش، إذ عبّر عنها تعبيرا استعاريا كان أعلى حجاجية مما لو كان التعبير حقيقيًا [٣٧].

المبحث الثالث

من بنى الحجاج (الحجج المؤسسة على بنية الواقع مثالاً):

يتأسس هذا النوع من الحجج على علاقات حاضرة بين الأشياء المكوّنة للعالم، فهو توضيح للعلاقات الرابطة بين عناصر الواقع وأشيائه، فالأطروحة تبدو أكثر اقناعا إذا اعتمد المتكلّم على تفسير الوقائع والأحداث، وأن الخطاب الحجاجي يكون أقدر على الفعل في المتلقّي كلما انغرست مراجعه في الواقع [٣٨].

وسنتناول في بحثتنا هذا بعض الحجج المؤسسة على بنية الواقع:

التتابع: الحجة السببية والحجة البرغماتية:

هي مجموعة من النتائج تحيل الى علاقة سببية عن طريق وقائع متتابعة، من مثل قول أبي طالب–عليه السلام–:

عَجِبْتُ لحلمِ يا بْنَ شَيبةَ عازِبٍ وأحلامِ أَقْوامٍ لديكَ سِخافِ
... **...**
ولا تَتْرُكَنْهُ ما حَيِيتَ لمُعْظَمٍ وكُنْ رجُلاً ذا نَجدةٍ وعَفافِ
يذودُ العِدا عن ذِرْوَةٍ هاشميةٍ إلاَّفَهُمْ في النّاسِ خَيرُ إلافِ
فإنَّ لهُ قُربى لديكَ قَريبةً ولَيسَ بِذي حِلْفٍ ولا بمُضافِ [٣٩]

يحث أبو طالب–عليه السلام– أبا لهب على نصرة النبي–صلى الله عليه وآله– ويصف ما ينبغي أن يكون عليه الناصر من صفات الشجاعة والعفاف والابتعاد عن كل ما يسيء، لأنه يدافع عن (ذورة هاشم) وكل هذه الصفات وما ينبغي أن يكون يبررها أبو طالب–عليه السلام– بقوله (فإنَّ لهُ قُربى لديكَ قَريبةً) وكذلك أنه (ليسَ بِذي حِلْفٍ ولا بمُضافِ) فهو من خالص هاشم. وقد اعتمد أبو طالب–عليه السلام– ربطًا سببيًا دقيقًا، حاثًا أبا لهب على نصرة رسول الله – صلى الله عليه وآله–، إذ يقول:

فلا تَقْبَلَنَّ الدَّهرَ ما عِشْتَ خُطَّةً تُسَبُّ بها إمَّا هَبَطْتَ المَواسِما
ووَلِّ سَبيلَ العجزِ غَيْرَكَ مِنْهُمو فإنك لم تُخْلَقْ على العجز لازما
وحارِبْ فإنَّ الحربَ نِصْفٌ ، ولن ترى أَخا الحرب يُعطي الخَسْفَ حتَّى يُسالِما[٤٠]

على هذا النحو احتج أبو طالب–عليه السلام– على ضرورة ترك العجز والتخبّط والعشوائية وضياع الهدف، بحجة تصلح قانونا لكل الأجيال وأعني قوله: (فإنك لم تُخْلَقْ على العجز لازما). ويبني أبو طالب–عليه السلام– حجة أخرى، محاولا حث ابو لهب على نصرة النبي– صلى الله عليه وآله– والمحاربة من أجله، فإذا كان ابو لهب يتوجس الموت أو الهزيمة فهو مخطئ لأن الحرب تنصف الشجاع وينهزم فيها الجبان.

وقد بنى ابو طالب–عليه السلام– حججا برغماتية غير الحجج السببية المذكورة، التي تعني تقويم قرار أو حدث أو رأي باعتبار نتائجه الايجابية أو السلبية[٤١]، ومن أمثلتها في شعر أبي طالب –عليه السلام– في رثاء أبيه عبد المطلب:

أبكـــى العيـــونَ وأذرى دَمعهـــا دِرَرا ... مصـــابُ شـــيبة بيـــتِ الـــدِّينِ والكَـــرَمِ

بَكَـــتْ قُـــرَيشٌ أَباهـــا كُلِّهـــا وَعَلـــى ... أيَّامِهـــا وَحِماهـــا الثابِـــتِ الـــدِّعَمِ

صَـــفِيُّ بَكِّـــي وَجـــودي بِالـــدُموعِ لَـــهُ ... وَأسْـــعِدي يـــا أُمَـــيْم اليَـــومَ بِالسَّـــجَمِ

تُجِبـــكِ نُســـوَةُ رَهـــطٍ مِـــن بَنـــي أَسَـــدٍ ... وَالغُـــرِّ زَهـــرَةَ بَعـــدَ العُـــرْبِ وَالعَجَـــمِ

أَلَـــمْ يَكُـــنْ زَيْـــنَ أَهـــلِ الأَرضِ كُلِّهِـــم ... وَعِصـمَةَ الخَلْـقِ مِـن عـادٍ وَمِـن أرمِ [٤٢]

فموت عبد المطلب قد شغل ابنه أبو طالب–عليه السلام– عن كل ما سوى البكاء فالفقيد (بيت الدين الكرم) إذ جعله يرسل الدموع مدرارا حزنا لما أصاب (شبية) المشهور بصفات الكرم والشجاعة والقيادة والحكمة وغيرها من الصفات الحميدة، ولهذا بكت كل قريش (أباها)، فالمصيبة الفردية أصبحت مصيبة عامة لكل قريش، لأنَّ الراحل زين أهل الارض، وعصمة الخلق جميعهم.

نلاحظ ذلك أيضا في قوله:

ألا مَـــن لهـــمٍّ آخـــر الليـــلِ مُعْـــتمِ ... طَـــواني ، وأخْـــرى الـــنَّجمِ لمَّـــا تَقَحَّـــمِ

طـــواني وقـــد نامـــتُ عُيـــونَ كثيـــرة ... وســـامرُ أخـــرى قاعـــدٌ لـــم يُنـــومِ

لأحـــلامِ قَـــومٍ قـــد أرادوا محمّـــداً ... بظلـــمٍ ومـــن لا يَتقـــي الظُلـــمَ يُظلـــمِ

سَـعَوا سَـفَهاً واقتـادَهُم سـوءُ أمـرِهِمْ ... علـى قائـلٍ مـن أمـرهمْ غيـرِ مُحكـمِ [٤٣]

إن ما جعل هذا السيد الحكيم تواكبه الأحزان حتى آخر الليل المظلم وحين لم يغب آخر كوكب وحين غفت كل العيون باطمئنان، قرارَ قومه حين أرادوا ظلما بالنبي محمد–صلى الله عليه وآله–

، إن ما أرقه ليس حرصه على حياته أو توجسا من مجهول قادم يلم به. فلم يكن توجسه إلا لخطر يلم بـ (محمد –صلى الله عليه وآله–)، ويتجلّى الجانب التأثيري لهذه الحجة، بحيث ينقلب همّه ثورة وأرقه نصرة للنبي، في الأبيات التالية:

تُرجُّـــون أنْ نَســـخَى بقتْـــلِ محمـــدٍ ... ولـم تختضـبُ سُـمرُ العـوالي مـن الـذَّمِ
كَـــذَبتُمْ وبيـــتِ الله حتـــى تَعرَّفـــوا ... جَمـــاجمَ تُلقَـــى بـــالحَطيمِ وزَمْـــزَمِ
وتُقْطَـــعَ أرحـــامُ وتَنْســـى خَليلـــةٌ ... حَلـــيلاً ويُفشَـــى مَحْـــرَمٌ بَعْـــدَ مَحْـــرَمِ
ويُـنهضَ قـومٌ فـي الحديـدِ إليكمـو ... يَـــذُبُّون عـــن أحســـابِهم كـــلَّ مُجْـــرِمِ
وظلـمُ نبـيٍّ جـاءَ يـدعو إلـى الهُـدى ... وأمـرٌ أتـى مـن عنـدِ ذي العرشِ قيِّمِ (٤٤)

وكل تلك التضحيات التي قرر أبو طالب–عليه السلام– تقديمها لابن أخيه كانت نابعة من إيمان عميق بما يدعو له لأنه يدعو إلى الهدى وأمره جاء من ذي العرش العظيم.

الغائية: حجّة الاتجاه وحجّة التجاوز

تظهر في شعر أبي طالب –عليه السلام– بشكل واضح حجة الاتجاه التي تعني رفض أمر ما حتى وإن اعترفنا بأنه في ذاته أمر مقبول أو جيد لأنه سيكون الوسيلة التي تقودنا إلى غاية لا نريدها (٤٥)، وهي على ما ترى الدكتورة سامية الدريدي حجة مثيرة تمكّن من أمور عديدة لا اعتراض عليها في ذاتها لأنها إن طبقناها إلى غاية لا ننشدها وإلى نتيجة نتحاشى وقوعها(٤٦)، وأبو طالب–عليه السلام– على الرغم مما ينشده من توثيق أواصر القرابة مع قريش ونبذ الحرب والقتال إلا أن مواقف كثيرة تدعوه إلى فك تلك العرى، ويرد الصاع صاعين حرصا على بيضة الإسلام وحماية النبي العظيم–صلى الله عليه وآله–، من ذلك قوله:

ألـــمْ تَعلمـــوا أنَّ القطيعـــةَ مـــأثَمٌ ... وأمـــرُ بـــلاءٍ قـــائمٍ غيـــرِ حـــازِمِ
وأن ســـبيلَ الرُّشْـــدِ يُعلـــمُ فـــي غَـــدٍ ... وأن نعـــيمَ الـــدِّهرِ لـــيسَ بـــدائمِ
... ...
فـــــــإنَّكم واللهِ لا تَقْتلونَـــــــهُ ... ولمَّـــا تَـــرَوا قطـــفَ اللَّحـــى والغَلاصِـــمِ
ولـــم تُبْصـــروا الأحيـــاءُ مـــنكُم مَلاحمـــاً ... تحـــومُ عليهـــا الطَّيـــرُ بعـــدَ مَلاحـــمِ
وتَـــدَّعوا بأرحـــامٍ أواصـــرَ بَيْننـــا ... وقـد قطـعَ الأرحـام وقـعُ الصَّـوارمِ (٤٧)

أبو طالب–عليه السلام– يعلم أن قطيعة الرحم مأثم وصلة الرحم واجب ولا اعتراض عليه في حد ذاته، وهو مما يسعى له كل حكيم وأن نعيم الدهر ينتهي حتما ولكن حينما يكون النبي محمد–

صلى الله عليه وآله- هو المستهدف بالقتل وهو ما يسعون إليه، تكون قطيعة الرحم بوقع الصوارم واجبة، فلا شيء يعلو صلة الدين والعقيدة [٤٨].

وكذلك يرفض أبو طالب-عليه السلام- الظلمَ والتعدي ولاسيما إذا كان من ذوي القربى، إذ يعتمد الحجة ذاتها في قوله:

فيـــا قَومَنـــا لا تَظْلمونـــا فإنَّنـــا ... متـــى مـــا نَخَـــفْ ظُلْـــمَ العَشـــيرةِ نَغْضَـــبِ
وكُفُّـــوا إلـــيكُمْ مـــن فُضـــولِ حلـــومِكُمْ ... ولا تَـــذْهبوا مـــن رأيِكـــم كـــلَّ مَـــذْهَبِ
ولا تبـــــدؤونا بالظُّلامـــــةِ والأذى ... فَنَجْزيكمُـــو ضِـــعْفاً مـــعَ الأمِّ والأبِ [٤٩]

تجنب الظلم ولا سيما ظلم العشيرة هو ما يرجوه ابو طالب-عليه السلام-، فهو يحاول منعهم عن الظلم وتجنّب العداوة ليس خوفًا بل حرصًا على كل قطرة دم، لأنهم بظلمهم وتجاوزهم لن يكونوا بمأمن من جزاء أبي طالب-عليه السلام- المضاعف.

وكثيرا ما حاول ابو طالب-عليه السلام- أن يردع الخصوم بحجج رصينة، فهو يؤسس الأبيات القادمة على الحجة ذاتها، إذ يقول:

خليلـــيَّ مـــا أُذْنـــي لأوَّلِ عـــاذلِ ... بِصَـــغْواءَ فـــي حـــقٍّ ولا عنـــدَ باطـــلِ
خليلـــيَّ إنَّ الـــرأيَ لـــيسَ بِشِركـــةٍ ... ولا نَهْنَـــهٍ عنـــدَ الأمـــورِ البَلابـــلِ
ولمّـــا رأيـــتُ القـــومَ لا وُدَّ عنـــدَهُمْ ... وقـــد قَطَعـــوا كـــلَّ العُـــرى والوَســـائلِ
وقـــد صـــارحونا بالعـــداوةِ والأذى ... وقـــد طـــاوَعوا أمـــرَ العـــدوِّ المُزايـــلِ
... ...
صَـبرتُ لهُـمْ نَفسـي بسـمراءَ سَـمحةٍ ... وأبـيضَ عَضْـبٍ مـن تُـراث المقـاوِلِ [٥٠]

يقرّ سيدنا أبو طالب-عليه السلام- كل معاني الحكمة وتجنّب الاصغاء إلى أصوات الفتنة أو الميل نحوها، فضلا عن إقراره بضرورة المشاورة في الأمور العصيبة والمهمة، ولكن هذا قد يؤدي إلى تجرؤ الناس على الرسول الكريم -صلى الله عليه وآله-، وظلمه بل وقتله لو استطاعوا، من هنا جاءت دعوته إلى أن يتخذ سبيل القوة والحزم في مثل هذه الأمور ويحكم السيف في ما بينه وبين الخصوم.

وإن اعتبار الغاية يؤدي إلى نوع آخر من الحجج تعرف بـ(حجة التجاوز) التي تؤكد إمكانية السير دائما نحو نقطة أبعد في اتجاه ما من دون أن نلمح للسير في ذاك الاتجاه حدا بفضل

تزايد مطرد في قيمة ما، فهي إذن تعد العائق وسيلة [٥١]،وبنى أبو طالب–عليه السلام– أبياته على هذه الحجة حين يوصي ابنه الإمام عليًّا عليه السلام:

اصبرن يا بني فالصبر أحجى كل حي مصيره لشعوب

... ...

إن تصبك المنون فالنبل تترى فمصيب منها وغير مصيب

كل حي وإن تملى بعمر آخذ من مذاقها بنصيب [٥٢]

فأبو طالب –عليه السلام– يدعو سيدنا الإمام عليًّا –عليه السلام– ألّا يتأثر بنوائب الدهر، فالمصائب ينبغي أن لا تؤثر فيه بل تزيده صلابة لفداء النبي الكريم–صلى الله عليه وآله–، كما إنها ستزول وكل تلك المصائب يمكن تجاوزها بالصبر الجميل؛ ليواصل غايته في حماية الرسول الكريم–صلى الله عليه وآله– على الرغم من سهام المنون. فيقدّم أبو طالب–عليه السلام– استدلالا على الحياة بعز وبصبر إذ إن كل حي ستكون له نهاية آخذا ما يستحق من نصيبه.

التعايش: حجة السلطة– حجة الشخص وأعماله

تُبنى هذه الحجة انطلاقا من علاقة تعايش بين الأشياء، وقد حُصرت في علاقة الذات بصفاتها أو الشخص بأفعاله، من ذلك قول أبي طالب –عليه السلام– وهو يحتج لنصرة رسول الله بقوله:

وأبيضَ يُسْتَسْقَى الغَمامُ بوجهِهِ ثِمالُ اليتامى عِصْمةٌ للأرامِلِ

يلوذُ بهِ الهُلاّكُ من آلِ هاشمٍ فهُم عندَهُ في نِعمةٍ وفَواضِلِ [٥٣]

رسول الله بحسب ما يراه حاميه وناصره عمّه أبو طالب سيّدًا يُستَبشَر الخير بوجهه الكريم أيام الجدب والقحط التي تصيب القوم، ويلتجئ إليه الفقراء والمعدمون وهو يجود عليهم بالسخاء دائما فمن تكون هذه سماته المعنوية والخُلقية الرفيعة من دون شك لا يتوقع منه الكذب، فضلا عن ذلك فإنه يستحق النصرة.

وتقترب من هذه الحجة حجة أخرى وهي تقوم على الشخص وأعماله إذ تبني في جوهرها على اعتبار الصلة وثيقة بين أي شخص وأعماله وخاصة على مبدأ ثبات الشخصية بحيث إذا قامت بفعل محدد فذلك لأنها عرفت بخصال معلومة منذ زمن بعيد[٥٤]، وإذا كان أغلب الشعراء يميلون إلى كسر هذه العلاقة مشككين بثبات الشخصية، إلا أن أبا طالب –عليه السلام– يعرف رسوله الله حق معرفته وهو متيقّن من عصمته، فنراه يقول:

وَلَقَد عَهِدتُكَ صادِقاً في القَولِ لا تَتَزَيَّدُ

مـــا زِلـــتَ تَنطِـــقُ بِالصَّـــوا ... بِ وَأَنـــتَ طِفـــلٌ أَمـــرَدُ (٥٥)

يستدل أبو طالب–عليه السلام– على صدق دعوى الرسول محمد–صلى الله عليه وآله– وعلى سبب تمسك أبو طالب–عليه السلام– والدفاع عنه بهذه التقنية الحجاجية وهي الترابط الوثيق بين الشخص وأعماله بين صدقه وهو كان طفلًا وصدقه اليوم وهو نبي مرسل من الله عز وجل.

تظهر حجة أخرى في سياق العلاقة بين الشخص وأفعاله ذات أهمية خاصة هي حجة السلطة، وتتمثل في الاحتجاج لفكرة أو رأي أو موقف اعتمادا على قيمة صاحبها (٥٦)، واستعمل أبو طالب–عليه السلام– هذه التقانة الحجاجية حين يمدح الرسول–صلى الله عليه وآله– وينذر قومه عاقبة عدوانهم، إذ يقول:

ألـــيسَ أبونـــا هاشـــمٌ شَـــدَّ أَزْرَهُ ... وأوصـــى بَنيـــهِ بالطِّعـــانِ وبالضَّـــربِ؟

ولســنا نَمَــلُّ الحــرْبَ حتَّــى تَمَلَّنَــا ... ولا نَشْـتكي مـا قَـدْ يَنُـوبُ مـنَ النَّكْـبِ (٥٧)

يحاول سيدنا أبو طالب–عليه السلام– أن يثبت لقومه أنه لن يتخلّى عن الرسول الكريم محمد–صلى الله عليه وآله–، ففي سبيل الدين الإسلامي ونبي الإسلام هو لا يمل الحرب، وقد اختار حجة السلطة لإقناع القوم وحملهم على الاذعان، فاختار اسما عرف بالقوة والصلابة ونصر المظلومين فضلا عن صفات الكرم والايثار. فاسم (هاشم) كاف لتعزيز مبدأ الثبات عند المسلمين، ومنع المشركين عن التمادي في أذاهم(٥٨).

وتتنوع صور حجة السلطة في شعر أبي طالب–عليه السلام–، ولعل مرد ذلك أن هذه الحجة ثابتة الطاقة الحجاجية، فمن يريد دفعها بخطاب معارض لا بد له أن يأتي بأحداث تفندها أو يواجه السلطة المعتمدة بسلطة أخرى تناقضها (٥٩). والشاعر ذاته يتحول إلى سلطة في بعض الأحيان حين يحرص على الظهور بمظهر من لا يرد له القول، وأبو طالب–عليه السلام– سلطة حقيقية نافذ القول بما يحمل من سمات القيادة والحكمة، يقول عليه السلام مخاطبا ابنه طالب–عليه السلام–:

أَبُنـــيَّ طالـــبُ ، إنَّ شَـــيْخَك ناصِـــحٌ ... فيمـــا يقـــولُ مُسَـــدِّدٌ لـــكَ راتـــقُ؟

فاضـــرِبْ بسَـــيْفِك مَـــن أرادَ مَســـاءَةً ... حتَّـــى تكـــونَ لـــه المنيَّـــةُ ذائـــقُ

هـــذا رَجـــائي فيـــكَ بعـــدَ مَنِيَّتـــي ... لا زلـــتُ فيـــكَ بكـــلِّ رُشْـــدٍ واثـــقُ (٦٠)

للوالد سلطة عليا على الولد تأتي من تجارب الحياة والحرص على الولد، مضافا إلى سلطة الشاعر والشيخ الناصح والحكيم المجرّب، فحديثه بهذه الحالة لا يرد ولا يقبل نقاشا.

وفي الأمثلة السابقة لا يكتفي ابو طالب –عليه السلام– في استعماله لهذه الحجة، بل يعضدها بحجج أُخر فتأتي حجة السلطة لديه مكملة لحجج متنوعة.

وهناك وجه آخر من وجوه حجة السلطة ألا وهو سلطة الرمز، فالعلاقات هي شكل آخر من أشكال الواقع تؤسس بدورها على الانتماء، ولكنه انتماء اجتماعي ثقافي خالص؛ لذلك تتغير الرموز بتغيّر الأوساط الاجتماعية والبيئات الثقافية [٦١].

وأبو طالب يعي الفضاء الذي يلقي فيه شعره، ويدرك الرموز التي يتفق عليها العرب والتي يؤمنون بقوّتها بل بقداستها، فنراه يوظّف القبيلة والخيل والسيف والرمح توظيفًا حجاجيًّا للدفاع عن الرسالة المُحمديّة وحمايتها، ومن ذلك قوله:

فَإنّـــا بِمَكَّـــةَ قِـــدْماً لَنـــا	بِهـــا العِـــزُّ وَالخَطَـــرُ الأَعظَـــمُ
وَمَـــن يَـــكُ فيهـــا لَـــهُ عِـــزَّةٌ	حَـــديثاً فَعِزَّتُنـــا الأَقـــدَمُ
وَنَحـــنُ بِبَطحائِهـــا الراســـبو	نَ وَالقائِـــدونَ وَمَـــن يَحكُـــمُ
نَشـــأنا فكُنّـــا قَلـــيلاً بِهـــا	نُجيـــرُ وَكُنّـــا بِهـــا نُطْعِـــمُ
إِذا عَـــضَّ أَزمُ الســـنين الأَنـــامَ	وَحـــبَّ القُتَـــار بِهـــا المُعـــدِمُ
نَمـــاني شَـــيْبَةُ ســـاقي الحَجـــيجِ	وَمَجـــدٌ مُنيـــفُ الـــذُّرى مُعْلَـــمُ [٦٢]

يذكّر أبو طالب–عليه السلام– قريشا بمنزلتهم، فمجد هذا القبيلة مجد عريق فهم من أعرق بطون مكة، فعزّهم قديم، ومقامهم عظيم، ونسبهم عريق، فهم أصحاب السيادة والقيادة والحكم في قريش توارثوها عبر الأجيال، فكانت بيده أمر السقاية والرفادة وإلى هذه المأثرة والمجد المنيف الواضح أشاد أبو طالب–عليه السلام– بفخره، وهو يتباهى بأنهم يجيرون الفقراء ويكرمونهم.

الخاتمة:

١.وظّف أبو طالب–عليه السلام– لنصرة النبي–صلى الله عليه وآله– كل السبل المتاحة ولعل من أبرزها شعره في الدفاع عن النبي–صلى الله عليه وآله– ونصرته.

٢.تنوّعت المسالك الحجاجية التي سلكها أبو طالب–عليه السلام– في شعره لإثبات رأيه وترسيخ قناعات قومه في الدفاع عن النبي–صلى الله عليه وآله– ولإقناع خصومه بكف الأذى عن النبي–صلى الله عليه وآله– والمسلمين.

٣.كشف البحث عن القيم الحجاجية في أسلوب الاستفهام، وأثره في إقامة الدليل واستدراج المتلقّي للوصول إلى قناعات يريدها هو عليه السلام.

٤.وظّف أبو طالب –عليه السلام– في خطابه أسلوبي الأمر والنهي لدفع المتلقي إلى القيام بأمر ما أو تجنبه.

٥.ساهمت الصور التشبيهية والاستعارية في اثراء الطاقة الحجاجية، لما فيها من قدرة على استمالة المتلقي من خلال الصورة المعروضة.

٦.انطلق أبو طالب–عليه السلام– من الواقع في تأسيس حججه، فكانت أكثر تأثيرًا في المتلقي. وهي في اغلبها لنصرة النبي الكريم–صلى الله عليه وآله–.

٧.كان أغلب حجاج أبي طالب–عليه السلام– حجاجا عقديًّا، لنصرة النبي–صلى الله عليه وآله– والدفاع عنه وعن الرسالة الإسلامية.

٨.دافع أبو طالب–عليه السلام– عن منظومة القيم الاجتماعية التي تحكم البيئة العربية ودعا إلى صيانتها بشرط عدم تعارضها مع المنظومة الدينية الإسلامية.

التوصيات:

١.الدعوة إلى إعادة النظر في تراث أبي طالب الأدبي في هدي المناهج الحديثة والعناية به في الجامعات العراقية والعربية.

الهوامش:

[١] – ينظر لسان العرب: مادة (حجج).

[٢] – في أصول الحوار: ٦٥.

[٣] – بحث (مصطلح الحجاج بواعثه وتقنياته):٢٨٧.

[٤] – ينظر: الحجاج في الشعر العربي، بنيته وأساليبه :٣٥.

[٥] – ينظر: م. ن: ٥٢

[٦] – ينظر: م. ن: ٢٤.

[٧] – ينظر: م. ن.

[٨] – ينظر: م. ن: ٢٣.

[٩] – بحث (الإقناع المنهج الأمثل للتواصل والحوار (نماذج من القرآن الكريم والحديث): ٢١٤.

[١٠] – ينظر: الحجاج في الشعر العربي، بنيته وأساليبه:١٤١.

[١١] – ينظر: الديوان: ٢٥–٢٦

[١٢] – ينظر: الديوان: ١٧.

[١٣] – ينظر: الديوان: ٣٥.

[١٤] – اللغة والحجاج: ١٢٣.

[١٥] – ينظر: الحجاج في الشعر العربي، بنيته وأساليبه: ١٤٩.
[١٦] – ينظر: الديوان: ٦٢.
[١٧] – ينظر: الديوان: ٢٧.
[١٨] – ينظر: الديوان: ٢٨.
[١٩] – ينظر: الحجاج في الشعر العربي، بنيته وأساليبه: ١٥٣.
[٢٠] – ينظر: الديوان: ٦٨–٦٩.
[٢١] – ينظر: لسان العرب: مادة (شبه)
[٢٢] – نقد الشعر: ١٢٤.
[٢٣] – ينظر: الديوان: ٤٨.
[٢٤] – ينظر: الديوان: ٦٦.
[٢٥] – ينظر: الديوان: ٧٣.
[٢٦] – ينظر: الديوان: ٤١.
[٢٧] – ينظر: الديوان: ٤٥.
[٢٨] – ينظر: الجامع في تاريخ الأدب: ١٥٨، والحجاج في شعر المتنبي– دراسة في الفاعلية الحجاجية: ٢٦٠.
[٢٩] – ينظر: الديوان: ٧٧.
[٣٠] – البيان والتبيين: ١/ ١٠١.
[٣١] – أسرار البلاغة:٣٠.
[٣٢] – الحجاج في الشعر العربي، بنيته وأساليبه: ٢٦٩.
[٣٣] –الحجاج مفهومه ومجالاته: دراسة نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة.
[٣٤] – كتابة الجاحظ في ضوء نظريات الحجاج: ٢٩٠.
[٣٥] – ينظر: الديوان: ٥٩.
[٣٦] – ينظر: الديوان:٣١.
[٣٧] – ينظر: اللغة والحجاج: ١٠٣، وينظر: الاستعارة وأثرها الحجاجي في شعر أبي الطيب المتنبي: ٣٢٥.
[٣٨] – ينظر: الحجاج في الشعر العربي، بنيته وأساليبه: ٢١٤.
[٣٩] – ينظر: الديوان:٥٥–٥٦.
[٤٠] – ينظر: الديوان:٧٨.
[٤١] – ينظر: الحجاج في الشعر العربي، بنيته وأساليبه: ٢١٦.
[٤٢] – ينظر: الديوان: ٨٩.
[٤٣] – ينظر: الديوان: ٨٥–٨٦.
[٤٤] – ينظر: الديوان: ٨٦.
[٤٥] – ينظر: الحجاج في الشعر العربي، بنيته وأساليبه:٢٢٥
[٤٦] – ينظر: م. ن: ٢٢٥.
[٤٧] – ينظر: الديوان: ٨٤.
[٤٨] – ينظر: الحجاج في الشعر العربي، بنيته وأساليبه: ٢٢٦.

[٤٩] – ينظر: الديوان:٢٧.
[٥٠] – ينظر: الديوان: ٦٣.
[٥١] – ينظر: الحجاج في الشعر العربي، بنيته وأساليبه: ٢٢٦.
[٥٢] – ينظر: الديوان: ٢٤.
[٥٣] – ينظر: الديوان: ٦٧.
[٥٤] – ينظر: الحجاج في الشعر العربي، بنيته وأساليبه:٢٢٩
[٥٥] – ينظر: الديوان ٣٦.
[٥٦] – ينظر: الحجاج في الشعر العربي، بنيته وأساليبه: ٢٣٢.
[٥٧] – ينظر: الديوان: ٢٨–٢٩.
[٥٨] – ينظر: الحجاج في الشعر العربي، بنيته وأساليبه: ٢٣٢.
[٥٩] – ينظر: م . ن : ٢٣٥.
[٦٠] – ينظر: الديوان: ٥٧.
[٦١] – ينظر: الحجاج في الشعر العربي، بنيته وأساليبه:٢٣٦.
[٦٢] – ينظر: الديوان: ٨١–٨٢.

مصادر البحث ومراجعه:

(١)الاستعارة وأثرها الحجاجي في شعر أبي الطيب المتنبي– مقاربة تداولية حجاجية، محمد فارح، مجلة الموروث، المجلد التاسع، العدد الثاني ديسمبر (٢٠٢١).

(٢)أسرار البلاغة: ، ابو بكر عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) قرأه وعلق عليه ابو فهر محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني ، القاهرة ، ط١ ، (١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م)

(٣)الإقناع المنهج الأمثل للتواصل والحوار (نماذج من القرآن الكريم والحديث): امنة بلعلي، مجلة التراث العربي ، دمشق ،٢٠٠٣ ، العدد ٨٩ .

(٤)البيان والتبيين: ابو عثمان بن بحر الجاحظ (٢٥٥هـ) ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط٧ ، ١٤١١هـ ـ ١٩٩٨م .

(٥)الجامع في تاريخ الأدب العربي– الأدب القديم: حنا الفاخوري، دار الجيل، بيروت– لبنان، ١٩٨٦، ط١.

(٦)الحجاج في الشعر القديم بنيته وأساليبه، إعداد سامية الدريدي، مطبعة عالم الكتب الحديث، اربد، الأردن، ط٢، ٢٠١١.

(٧)الحجاج في شعر المتنبي– دراسة في الفاعلية الحجاجية: عباس حسن الطيار، مجلة جامعة بابل، العلوم الإنسانية، مج٢٦، العدد الخامس، ٢٠١٨.

(٨)الحجاج مفهومه ومجالاته: دراسة نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، إعداد وتقديم: د. حافظ إسماعيلي علوي، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط١، ٢٠١٠م.

(٩)ديوان ابي طالب، عم النبي : جمعه وشرحه: د. محمد التونجي، دار الكتاب العرب، بيروت، ط١، ١٩٩٤م.

(١٠)في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، طه عبد، الدار البيضاء المركز الثقافي الانمائي، ط٢، ٢٠٠٠م.

(١١)كتابة الجاحظ في ضوء نظريات الحجاج: رسائله أنموذجا: د. محمد علي سلمان، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لبنان، ط١، ٢٠١٠م.

(١٢)لسان العرب: محمد بن مكرم بن علي ابو الفضل جمال الدين بن منظور الانصاري الافريقي ، دار صادر ، بيروت ، لبنان ، ط٣ ، ١٩٩٤م .

(١٣)اللغة والحجاج: أبو بكر العزاوي، مؤسسة الرحاب، بيروت، ط١، ٢٠١٠.

(١٤)مصطلح الحجاج بواعثه وتقنياته، عباس حشاني، مجلة المخبر: (ابحاث في اللغة والأدب الجزائري) العدد التاسع، جامعة بسكرة– الجزائر، ٢٠١٣م.

(١٥)نقد الشعر: قدامة بن جعفر ، تحقيق : محمد عبد المنعم الخفاجي ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

Research sources and references:

(1)Metaphor and its argumentative effect in the poetry of Abu al-Tayeb al-Mutanabbi - a pragmatic, argumentative approach, Muhammad Farah, Al-Mawruth Magazine, Volume Nine, Second Issue, December.(٢٠٢١)

(2)Secrets of Rhetoric: Abu Bakr Abd al-Qahir al-Jurjani (d. ٤٧١AH), read and commented on by Abu Fahr Mahmoud Muhammad Shaker, Al-Madani Press, Cairo, ١st edition, (١٤١٢AH - ١٩٩١AD)

(3)Persuasion is the ideal method for communication and dialogue (examples from the Holy Qur'an and Hadith): Amna Balali, Arab Heritage Magazine, Damascus, ٢٠٠٣, No. .٨٩

(4)Al-Bayan and Al-Tabyin: Abu Othman bin Bahr Al-Jahiz (٢٥٥AH), edited by: Abdul Salam Muhammad Haroun, Al-Khanji Library for Printing, Publishing and Distribution, Cairo, ٧th edition, ١٤١١AH - ١٩٩٨AD.

(5)Al-Jami' in the History of Arabic Literature - Ancient Literature: Hanna Al-Fakhoury, Dar Al-Jeel, Beirut - Lebanon, ١٩٨٦, ١st edition.

(6)Al-Hajjaj in ancient poetry, its structure and methods, prepared by Samia Al-Daridi, Modern World of Books Press, Irbid, Jordan, ٢nd edition, .٢٠١١

(7)Pilgrims in Al-Mutanabbi's poetry - a study on pilgrimage effectiveness: Abbas Hassan Al-Tayyar, Babylon University Journal, Human Sciences, Volume ٢٦, Fifth Issue, .٢٠١٨

(8)Al-Hajjaj, its concept and fields: a theoretical and applied study in the new rhetoric, prepared and presented by: Dr. Hafez Ismaili Alawi, The Modern World of Books, Jordan, ١st edition, ٢٠١٠AD.

(9)Diwan of Abu Talib, uncle of the Prophet: compiled and explained by: Dr. Muhammad Al-Tunji, Dar Al-Kitab Al-Arab, Beirut, ١st edition, ١٩٩٤AD.

(10)On the Principles of Dialogue and the Renewal of the Science of Theology, Taha Abd, Casablanca Cultural and Development Centre, ٢nd edition, ٢٠٠٠AD.

(11)Al-Jahiz's writing in light of Al-Hajjaj's theories: his letters as an example: Dr. Muhammad Ali Salman, Arab Foundation for Studies and Publishing, Lebanon, ١st edition, ٢٠١٠AD.

(12)Lisan al-Arab: Muhammad bin Makram bin Ali Abu al-Fadl Jamal al-Din bin Manzoor al-Ansari al-Ifriqi, Dar Sader, Beirut, Lebanon, ٣rd edition, ١٩٩٤AD.

(13)Language and Pilgrimage: Abu Bakr Al-Azzawi, Al-Rehab Foundation, Beirut, ١st edition, .٢٠١٠

(14)The term pilgrims, its motives and techniques, Abbas Hachani, Al-Makhbar magazine: (Research in Algerian language and literature), ninth issue, University of Biskra - Algeria, ٢٠١٣AD.

(15)Criticism of Poetry: Qudamah bin Jaafar, edited by: Muhammad Abdel Moneim Al-Khafaji, Dar Al-Kutub Al-Ilmiyyah, Beirut.